

## القيم التداولية (أفعال الكلام والحجاج)

### في الخطاب الشعري

#### قصيدة " الغاضبون " لنزار قباني أنموذجا

أ.مختار حسيني - أ.د مسعود صحراوي

جامعة الأغواط - الجزائر

تمهيد :

قامت نظرية أفعال الكلام عند مؤسسها الأول "جون أوستين" في بداية مراحلها على مراجعة ما كان سائدا من اعتقاد لدى فلاسفة اللغة الوضعيين حول طبيعة الجمل اللغوية، حيث كان من المسلم به أن الجمل الأساسية في اللغة هي الجمل الخبرية الخاضعة لمبدأ الصدق والكذب، على اعتبار أن (اللغة تهدف خاصة إلى وصف الواقع)<sup>1</sup>، أما الجمل الإنشائية فكانت تعد (من قبيل الجمل التي لا معنى لها، لأنها لا تطابق واقعا خارجيا)<sup>2</sup>.

واستنادا إلى هذا الاستقطاب الثنائي عمل "أوستين" على التمييز داخل الجمل الخبرية بين جمل وصفية خاضعة لمبدأ الصدق والكذب، وجمل لا تصف واقعا رغم ظاهرها الإخباري وألحقها بالإنشائية، واعتبر الجمل الإنشائية أفعالا كلامية بمجرد التلفظ بها، وليست هامشية كما كان منظورا إليها من قبل، إضافة إلى أن معناها يفيد (على وجه الدقة إنجاز عمل)<sup>3</sup>، (وهكذا تخلى أوستين في هذه المرحلة عن تمييز الجمل الإنشائية من الجمل الوصفية، وكشّف مفهوم العمل المتضمن في القول بوضوح ما يقصده أوستين بالإنشائي)<sup>4</sup> وبدل معيار الصدق والكذب استعاض بمبدأ النجاح والفشل، ليتوصل (في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى تقسيم "الفعل الكلامي الكامل" Acte de discours intégral إلى ثلاثة "أفعال" فرعية)<sup>5</sup> هي: فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول.

والقصديّة ركيزة كل فعل كلامي، و(تعدّ مراعاة مفهومها العام وشبكاتها المفاهيمية من أبرز المفاتيح المنهجية في الدراسات اللسانية النصية)<sup>6</sup> وهو ما أكدّه "سيرل" في اهتمامه بالفعل المتضمّن في القول في تقسيم أستاذه أوستين، ليميّز هو الآخر داخل الجملة بين: "المحتوى القضوي" المتعلق بالمضمون، و"القوّة الإنجازيّة للفعل" التي تتعلق بالعمل في حدّ ذاته. أي (الشدة أو الضعف اللذين يُمكن أن يعرض بأحدهما غرض إنجازي واحد في سياق بعينه من سياقات استعمال المنطوق)<sup>7</sup>

ونظراً (لهيمنة بعض القضايا على نظرية الأفعال الكلامية المباشرة مثل الاستعارة، والخيال، ظهر مفهوم الفعل الكلامي غير المباشر)<sup>8</sup> مع "سيرل" والذي خلاصته أنه فعل كلامي صيغ صياغة غير مباشرة.

لم يبق تأثير نظرية أفعال الكلام حبيس اللسانيات بل امتد إلى مجال النقد والأدب، حتى أصبح بإمكاننا القول إنه (إذا كانت نظرية تحليل الخطاب ونظرية التأويل الأدبي ركيزتين قويتين في النظرية الأدبية المعاصرة، فقد كانت تداولية أفعال الكلام من أهم الدعائم اللسانية التي ساعدت هاتين النظريتين على النمو والازدهار)<sup>9</sup>. ثم إن شأن هذه النظرية أن تغير نظرتنا للغة، إذ لم يعد الأمر يتعلق فقط باستعمال الكلمات في الجمل (بل باستعمال الجمل في المواقف المحسوسة: أي مواقف الفعل [أين] تكتسب الأخبار معانيها وقوتها في الوحدات المتعالية على جملها (أي الوحدات الصغرى)، التي لا تفترق عن موقف الاستعمال)<sup>10</sup>.

وأما الحجاج الذي نجثه في هذا المستوى، فهو الحجاج في اللغة كما عبر عنه "ديكرو" في كتابه: *L'argumentation dans la langue* وحينما نقول الحجاج في اللغة فلأننا نميز بين الغاية الحجاجية "Visée argumentative" والبعد الحجاجي "Dimension argumentative" وما نعينه هو ثانيهما، وهو الذي يمكّننا من الجزم بأن كل خطاب حجاج.

ويطابق "بيرلمان" بين البلاغة والحجاج منذ عنوان كتابه: « *Traité de l'argumentation la nouvelle rhétorique* » (لهذه المطابقة أهمية بالنسبة للمحتوى، ذلك أن كل ما اعتدنا اعتباره بلاغة في خطاب ما، وخاصة صور الأسلوب، سيفسر باعتباره حالة خاصة من أحوال الحجاج)<sup>11</sup>، أما الغاية الحجاجية فهي التي يصنف على أساسها نص ما بأنه نص حجاجي ليتداخل في هذا المستوى الحجاج بالبرهنة.

لقد ارتأينا السير في هذا المستوى من التحليل وفق منهجية اجتهدنا في رسم معالمها، فنحاول التعرف في البداية على الأبنية الصغرى في القصيدة عبر آلية التفكيك، ثم التعرف بعد ذلك عبر عملية التركيب على بنيتها الكبرى، سواء فيما يخص الفعل الكلامي الكلي، أو البناء الحجائي والسلم الحجائي العام للقصيدة. وها هو نص المدونة:

| الغاصبون                       | اضرُّوا... ..                 | لَا تَعُوذُوا..                       | وَرَزَعْتُمْ حِرَاحَنَا<br>نِسْرِينَا.. |
|--------------------------------|-------------------------------|---------------------------------------|---|
| يَا تَلَامِيذَ عَزَّةَ ...     | بِكُلِّ قَوَائِمُ             | لِكِتَابَاتِنَا .. وَلَا تَقْرَأُونَا | هَذِهِ ثَوْرَةُ الدَّفَاقِرِ ..         |
| عَلِّمُونَا ..                 | وَاحْزِمُوا أَمْرَكُمْ        | نَحْنُ أَبَاؤُكُمْ..                  | وَالْحِزْبِ ..                          |
| بَعْضُ مَا عِنْدَكُمْ          | وَلَا تَسْأَلُونَا..          | فَلَا تُشْبِهُونَا..                  | فَكُونُوا عَلَى الشَّفَاهِ              |
| فَنَحْنُ نَسِينَا ...          | نَحْنُ أَهْلُ الْحِسَابِ ..   | نَحْنُ أَصْنَامُكُمْ..                | لُحُونًا..                              |
| عَلِّمُونَا ..                 | وَالْجَمْعِ ..                | فَلَا تَعْبُدُونَا..                  | أَنْظِرُونَا..                          |
| بِأَنْ نَكُونَ رِجَالًا        | وَالطَّرْحِ ..                | تَتَعَاطَى                            | بُطُولَةً، وَشَوْحًا                    |
| فَلَدَيْنَا الرَّجَالُ ..      | فَحُوضُوا حُرُوبَكُمْ         | الْقَاتِ السِّيَاسِيِّ..              | وَاعْسَلُونَا مِنْ قُبْحِنَا            |
| صَارُوا عَجِينًا ..            | وَاتَرَكُونَا..               | وَالقَمْعِ ..                         | اعْسَلُونَا..                           |
| عَلِّمُونَا ..                 | إِنَّمَا الْهَارِبُونَ        | وَنَبِيِّ مَقَابِرًا..                | لَا نَخَافُوا مُوسَى ..                 |
| كَيْفَ الْحِجَارَةُ تَعْدُو    | مَنْ بِخِدْمَةِ الْحَيْشِ،    | وَسُجُونًا..                          | وَلَا سِحْرَ مُوسَى ..                  |
| بَيْنَ أَيْدِي الْأَطْفَالِ    | فَهَاتُوا جِبَالَكُمْ         | حَزْرُونًا..                          | وَاسْتَعْدُوا                           |
| مَاسًا نَمِينًا ..             | وَاشْتَفُونَا ..              | مَنْ عَقْدَةُ الْخَوْفِ فِينَا..      | لِيَتَقَطُّوا الرِّيُّونَا              |
| كَيْفَ تَعْدُو                 | نَحْنُ مَوْتَى ..             | وَاطْرُدُوا                           | إِنَّ هَذَا الْعَصْرَ الْيَهُودِيَّ     |
| دَرَجَةَ الطِّفْلِ، لَعْمًا    | لَا يَمْلِكُونَ صَرِيحًا      | مِنْ رُؤُوسِنَا الْأَقْيُونَا..       | وَهُمْ..                                |
| وَشَرِيطَ الْحَرِيرِ ..        | وَيَتَامَى ..                 | عَلِّمُونَا..                         | سَوْفَ يَنْهَأُ ..                      |
| يَعْدُو كَمِينًا ..            | لَا يَمْلِكُونَ عَيْونَا      | فَمَنْ التَّشْبِثُ بِالْأَرْضِ،       | لَوْ مَلَكْنَا الْيَقِينَا ...          |
| كَيْفَ مَصَاصَةُ الْحَلِيبِ .. | قَدْ لَرَمْنَا جُحُورَنَا..   | وَلَا تَتْرُكُوا..                    | يَا بَجَائِنَ عَزَّةَ ..                |
| إِذَا مَا اعْتَمَلُوهَا        | وَطَلَبْنَا مِنْكُمْ          | الْمَسِيحَ حَزِينًا..                 | أَلْفُ أَهْلَاءَ ...                    |
| نَحْوَلْتُ سِكِينًا....        | أَنْ تُقَاتِلُوا التَّيْنَا.. | يَا أَجْبَاءَنَا الصَّعَارَ ..        | بِالْحَاجِّينِ،                         |
| يَا تَلَامِيذَ عَزَّةَ         | قَدْ صَعَرْنَا، أَمَامَكُمْ   | سَلَامًا..                            | إِنَّ هُمْ حَزْرُونَا                   |
| لَا تُبَالُوا..                | أَلْفَ قُرْنِ ..              | جَعَلَ اللَّهُ يَوْمَكُمْ             | إِنَّ عَصْرَ الْعَقْلِ السِّيَاسِيِّ .. |
| بِإِدَاعَاتِنَا ..             | وَكَبْرِيَّتُمْ               | يَاسَمِينَا ..                        | وَلِيٍّ مِنْ زَمَانٍ ...                |
| وَلَا تَسْمَعُونَا..           | بِحِلَالِ شَهْرٍ - قُرُونًا.. | مِنْ شُقُوقِ الْأَرْضِ الْحَرَابِ     | فَعَلِّمُونَا الْجُنُونَا...            |
| اضرُّوا..                      | يَا تَلَامِيذَ عَزَّةَ..      | طَلَعْتُمْ                            |   |

## الأبنية الصغرى في القصيدة:

يا تلاميذ غزّة.. علّونا.. بعض ما عندكم.. فنحن نسينا..

اتخذ الملفوظ شكل فعل كلامي من الطلبات Les directifs، محتواه القضوي التنبيه إلى خطاب مباشر من الشاعر يتوجه به إلى تلاميذ غزّة بعدّهم مخاطبين، وأما نعتهم بـ "تلاميذ" ففيه إقامة للحجة على المتلقي الافتراضي، بأن هؤلاء تلاميذ مدارس، تركوا الدراسة وقاتلوا لأنهم لم يجدوا آباء يدافعون عنهم، ومن ناحية أخرى هم في أعين العالم تلاميذ صغار السن يتعلمون، بينما هم في الحقيقة كبار معلّون. لذلك أردفها بملفوظ "علّونا" وفي ذلك تبادل للمواقع بين الصغار وال كبار. ولذلك أيضا جاءت باقي التخريجات توجيهها من المرسل إلى المتلقي (علّونا، لا تبالوا، لا تعودوا...).

- علّونا بعض ما عندكم: فعل كلامي طلي والمحتوى القضوي لهذا الفعل: يا تلاميذ غزّة علّونا دروسا في الشجاعة والرجولة وفي صناعة الحياة وفقه سننها، علّونا أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، علّونا أن الإرادة تصنع المعجزات ولو بدون عدة. والقوة الإنجازية هي المدح والتعظيم. ولكنه يتضمن قوة إنجازية أخرى تخرج به عن المباشرة، هي التعريض بالعرب، وبمحتوى قضوي مفاده هوان العرب على كثرتهم أمام عظمة هؤلاء الفتية على قلتهم.

أما حين ينتقل الشاعر إلى ماهية التعليم في قوله "بعض ما عندكم" فنجده لا يكفي بـ "علّونا"، وكأنه حاول أن يستقصي الدروس الواجب تعلمها فلم يجد لها حصرا، وأدرك أن كل ما سيذكره منها لا يعدو أن يكون بعضا مما يمتلكه هؤلاء المعلمون. لذلك اكتفى بقوله "بعض".

- فلدينا الرجال صاروا عجينا: فعل كلامي تقريرى قوته: التحقير، وهنا تظهر القوة الإنجازية في وضع التعظيم مقابل التحقير، وهو فعل كلامي غير مباشر، والمحتوى القضوي: إننا كما بالأمس رجالا، لكن معايير الرجولة اليوم اختلفت ووقع فيها التحول -لذلك استعمل صاروا- ولم يعد الرجال مادة مستعصية على الكسر كما كانوا من قبل، بل لقد صاروا عجينا قابلا للتشكل في يد من يشكله.

- علمونا: فعل كلامي طلبي قوته التعظيم للمخاطب والتحقير للمرسل.

- كيف الحجارة... فعل كلامي غير مباشر خرج من الاستفهام إلى الطلب. محتواه: علمونا سر هذه الأيدي التي غدت محل درس وبحث لكل الدنيا، وكأنها أسطورية، سحرية، تفعل الأعاجيب، وتخرق القوانين التي طالما آمنّا بها، وهي أن إسرائيل قوة لا تقهر، فها هي ذي الحجارة بأيدي الصغار غير تلك الحجارة، تتحول من أهون شيء إلى أثمن شيء، ولأن شرف الوسيلة من شرف الغاية. وحديثنا عن الملفوظات هنا على أنها جميعها أفعال كلامية فلاّن (التحدث باللغة في حد ذاته ما هو إلا قيام بأفعال كلامية محددة)<sup>12</sup> أما القوة الإنجازية للفعل فهي الإعجاب والتعظيم.

على هذا الوجه يمكننا اعتبار هذه الأفعال أفعالاً كلامية غير مباشرة، بها يسعى الشاعر إلى التأثير في المتلقي بمحتوى قضوي عام مفاده: أن فعل الظلم يصنع ردة فعل أخطر منه، والعنف يولد عنفاً شرعياً أعظم منه، ولا تحقرن أيها الظالم ضعف من ظلمت أو تستهين به وبقلّة ما لديه، فقد يقتلك بأوهن وأهون شيء، وليس أهون في عيون فراغنة العصر من الأطفال. ومن ناحية أخرى تعلّموا أيها العرب المستضعفون أن الإرادة وحبّ الموت يصنعان المعجزات ويعطيان الحياة.

- بعد ذلك يأتي الفعل الكلامي الطلبي "يا تلاميذ غزة" قوته التنبيه أيضاً، ولكنه في هذه المرة تنبيه إلى شيء آخر فيه الخطر، ويجب منه الحذر، فمن شأنه أن يبطل سحر تلك الأيادي. توضحه الأفعال الكلامية الآتية:

- لا تبالوا بإذاعاتنا ولا تسمعونا: فعل طلبي، محتواه: احذروا شعاراتنا وآرائنا، فما نحن إلا مشيطين للهيم، مضعفين للعزائم، قاتلين للإرادة. والقوة الإنجازية هنا هي التوجيه للفتية، والسخرية من العرب. لأننا نجد في محتواه القضوي ما معناه: يا تلاميذ غزة لئن ظننتم أنكم ستمتأحون منّا عناصر تستعينون بها على عدوكم فأنتم واهمون، إنما نحن داء يضعفكم ولا يقويكم، لذلك اضربوا بكل قوتكم ولا تلتفتوا إلينا، فحتى الوقت الذي صرفتموه في التفكير فينا ستندمون على هدره وإضاعته. وكلها تأويلات ناتجة عن النظر إلى هذا الملفوظ - وإن كان كلاماً أدبياً- (بوصفه فعلاً لغوياً يدل عليه قصد المتكلم)<sup>13</sup>.

اضربوا.. فعل كلامي توجيهي، قوته: النصح، وتأكيد قوة النصح بتكرار الفعل الكلامي اضربوا، ولأنها أيضاً قوة إنجازية مستلزمة أي تلك (القوة الإنجازية المدركة مقامياً، والتي تستلزمها

الجملة في سياقات مقامية معينة)<sup>14</sup> والمحتوى القضوي: لا تعطوا فرصة لعدوكم، فلقد تبعثت أوراقه وتشتت بصره، وما إمهالكم إياه بالذي يخدمكم، فيأياكم والاستماع إينا، أو الطمع في شيء تتمنض عنه اجتماعات حكامنا الطارئة وموائدنا المستديرة التي نحن أشبه بها وبالرقم الذي ترسمه.

أما الحجاج في الملفوظات السابقة فنبدؤه من الوحدات المعجمية:

تلاميذ: ذات الطاقة الحجاجية المتفردة فهي تحمل معنى (صغار السن) و(طلاب العلم) و(التهذيب والبراءة) فليسوا متشردين أو مجرمين، مما يسهم في حجاجية الملفوظ. ويمكن اعتبار ذلك دلالة تضمين، ومنها أيضا استعمال الشاعر لحرف النداء "يا" في بداية خمسة أسطر شعرية، وفيه تنبيه وتبليغ يهدف إلى إقناع المتلقي وتوجيهه. وفي تكراره تأكيد وتقرير وحرص من المرسل على تسليم المتلقي بقناعته، الأمر الذي يشحن الملفوظ بطاقة حجاجية عالية ويظهر ما يشبه التدرج في الطاقة الحجاجية لهذا النداء، فكلها كّر النداء أضاف شحنة أخرى.

في النداء حرص على عدم ضياع الأمل المعقود بهؤلاء الفتية، وحرص على عدم النسيان، وحتى شحنة تلك المفردات المقترنة بحرف النداء: "تلاميذ" (3 مرات)، ثم "أحباءنا الصغار" ثم "مجانين غزة"، فيه اقتراب تدريجي من القلب إلى درجة الإعجاب الجنوبي (يا مجانين غزة)، والإعجاب بما هو أسطوري، في شكل بناء خطابي متدرج يقابله الابتعاد واليأس من الساسة العرب وعبثهم. وتعتبر كلها حججا تغني حجاجية الخطاب، إذ (لا يخلو اختيار اللقب أو إطلاقه من قصد حجاجي، إذ لا يقصد به تصنيف الموصوف بالنظر إلى السمات التي تشركه مع العناصر التي ينتمي إليها فحسب، ولكنه يعبر غالبا عن تحديد موقفه منه وطريقة الحكم عليه ومعالجته)<sup>15</sup> ولذلك وجدنا الشاعر يردف تلاميذ غزة بألقاب أخرى: "أحباءنا الصغار" ثم "مجانين غزة".

يعني تحديد العامل المشترك في الملفوظات أنه حجة عليا، تنضوي تحتها حجج دنيا أو فرعية، كما يعيننا على التعرف على البنية الحجاجية للخطاب ككل، وما يتعلق بها من استرسال وتسلسل حجاجي تصنعه البنية اللغوية للخطاب، إذ (ليس الهدف الأول للغة هو هدف الفهم والتمثيل، بل هو ممارسة لتأثير فعلي)<sup>16</sup> للشاعر في القارئ، وأهم مرتكزات البنية الحجاجية للخطاب هي الأفعال الكلامية، ثم الوحدات المعجمية كما رأينا، ومن الوحدات المعجمية "الأطفال".

ومما يكسب الملفوظ بناء حجاجيا وهندسة واضحة هو بعض الأدوات مثل "الفاء" التي تزيد في قوة المنطوق الإنجازية، فتبني علاقة بين الحجمة والنتيجة، بحيث تصبح الحجمة تقتضي النتيجة اقتضاء. وكلها سبل (لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة تجر الغير جرا إلى الاقتناع برأي المحاور. فتحصل بذلك الاقناعية الخالصة)<sup>17</sup>

- إننا الهاربون من خدمة الجيش، فهاتوا جبالكم واشنقونا: من البوحيات Les expressifs لأن الشاعر يظهر أساه وحسرتة على ما آلت إليه أحوال أمته. قوته الإنجازية: الأسى والشعور بالمرارة والانكسار. والمحتوى القضوي: أننا بخياتتنا نستحق الموت، وبطن الأرض خير لنا من ظهرها. وهنا أيضا يقدم الشاعر حجة توصل إلى نتيجة:

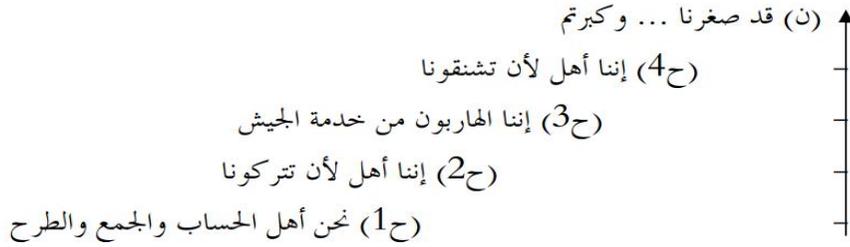
↑ (ن2) اشنقونا.  
(ح2) إننا الهاربون.

- نحن موتى.. لا يملكون ضريحا.. ويتامى.. لا يملكون عيوننا: فعل كلامي من البوحيات كذلك، قوته الإنجازية: التحسر والتوجع، والمحتوى القضوي: لقد فقدنا الحياة يوم فقدنا أهم مقوماتها وهو الأرض. فالذي لا يملك شبرا من أرض يدفن فيه وهو ميت، لا يملك بالضرورة شبرا عليه يتحرك وهو حي، فأدنى حركة منه تكبر معها المساحة المشغولة.

- ويتامى لا يملكون عيوننا: فعل كلامي من البوحيات أيضا جاء معطوفاً على الفعل الكلامي الذي سبقه، وهو فعل كلامي غير مباشر، يوحى بأشد أنواع الاستلاب، فالأعمى حينما يبتلئ بفقد عينيه لا يصبح مثل غيره من الناس، بل ستكتفه عتمة من الظلم، يفقد في سرايلها القدرة على الاهتداء. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ فاطر: ١٩ وسوف يكون عالة على من يتخذه بديلا لعينه، ومن سوى الوالدين يتحلمان ذلك ويصبران عليه؟ فكيف بهذا الكفيف وقد فقد والديه أيضا؟ ألا يكون قد فقد العينين وبديلهما معا؟ ألم يفقد عينيه مرتين؟ (ظلمات بعضها فوق بعض) وهذا هو حال العرب، عمى فوق عمى وظلمات متراكبات متراكبات، فقدوا الأرض والعرض وفقدوا معهما الإحساس، فإذا بقي لهم بعد ذلك؟ لذلك يمتزج هنا الشعور بالمرارة والأسى مع الحزن على حال العرب، وليس الهجاء الممزوج بالغضب والنقمة

فحسب، ذلك أن الذي يشعر بهذا الأسي إنما لكونه جزءا من هذا الكيان، يكتوي في كل لحظة بنار الانتماء إليه. وشتان بين الشعورين.

تعدد الحجج على هذا الصعيد لتؤدي إلى نتيجة كبرى لخصها الملفوظ "قد صغرنا أمامكم ألف قرن وكبرتم خلال شهر قرونا". ولنلخص ذلك في سلم حجاجي كالآتي:



كما عبّر الشاعر بـ "أمامكم" أي (بالنسبة لكم) عن الاتصال، وعبر بالصغر والكبر عن الانفصال، خاصة وأنه لم يستعمل النسبة في الثانية (أماننا)، لأنه ميلاد وعظمة ذاتيان لا علاقة لهما بالانتساب إلى جيل الخيانة.

- يا تلاميذ غزة لا تعودوا للكباتنا ولا تقرأونا: الفعل الكلامي هنا طليبي، وهو ذاته العامل المشترك المستعمل دائما للتنبيه.

لا تعودوا: فعل كلامي طليبي، قوته التحذير، محتواه القضوي: توجيه أطفال الحجارة إلى عدم الانخداع بشعارات العرب، والتي لا تعدو أن تكون حقنا مخدرة.

- نحن أبأؤكم فلا تشبهونا... نحن أصنامكم فلا تعبدونا.. توحى "أبأؤكم" و"أصنامكم" بطبيعة كل انقلاب على القديم البالي، وهو دأب الرسائل السماوية والحركات الإصلاحية، فأكبر تحدّ هو الخروج عما دأب عليه الآباء، ألم يقل المشركون في كل زمان لأبيائهم: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَمِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ" الأعراف: ٧٠ وبالتالي فهي ثورة يراها الشاعر وليدة، ورسالة للتحرر جديدة، يجب عليها أن تنبذ عادات الآباء وتحطم أصنامهم، وهي دعوة للثورة والمقاومة.

- نتعاطى القات السياسي... أفعال كلامية تقريرية غير مباشرة، قوتها الهجاء، ومحتواها القضوي: تبرير لذلك التحذير، وتأكيد لتلك الدعوة إلى الثورة. ذلك أننا نستهلك ونصدر التحذير

السياسي بكتاباتنا وتصريحاتنا، نقتل القضية بجرعات من الحلول الواهمة الحاملة، وباليد الأخرى نحن نقمع كل دعوة للثورة، بل ونقتل ونسجن كل ثائر أو محرض عليها، إننا ننادي صلاح الدين في كل حين، ولو قام فينا صلاح الدين لقتلناه. إنها مجرد شعارات وكتابات تفرغ القلوب مما شغنت به من غيظ، وتنفس عنها مشاعر الكبت، لتطفئ بداخلها جذوة الثورة رويدا رويدا، بفعل العادة والألفة وطول الأمد.

كما لا يخفى الدور الحجاجي للتخصيص عبر التعريف، ذلك أنه يجعل من المتلقي مواجهها بشكل مباشر للمفاهيم من خلال التعريفات المتنوعة سواء: الضمير المنفصل (نحن)، أو المتصل (نا، كم) الذي يعتبره سيويه أعرف المعارف<sup>18</sup> أو بالألف واللام (الحساب، الهاربون، التيننا، القات، القمع...) أو بالإضافة (أهل الحساب، حروبكم، جبالكم، بحورنا، تلاميذ غزة، كتاباتنا، آباؤكم...)، أو أسماء الإشارة (هذه ثورة الدفاتر، هذا العصر اليهودي)، ورغم أنه -بتعبير النحاة- اسم مبهم إلا أن الكوفيين يعدونه (أعرف من الاسم العلم)<sup>19</sup> "غزة"، ولا يخفى ما في ذلك من حجاجية تؤدي إلى إيصال المفاهيم وتبليغ التصورات كما يعتقد الباحث، وتنوع الحجج وتعددتها هو بمثابة محاصرة للمتلقي ودفع به إلى التخلي عما كان يعتقد، والتسليم المندرج بالمفاهيم الجديدة، وبالتالي فإن قصد المتكلم أيضا يسهم في حجاجية الملفوظات.

كما أن البنية المجردة للجمل الاسمية ذات العلاقة الإسنادية بين المبتدأ والخبر: (نحن أهل الحساب، نحن موتى، نحن آباؤكم...)، وبين اسم الناسخ وخبره: (إننا الهاربون من خدمة الجيش)، تضعنا أمام تناظر بين طرفي الإسناد، مما يجعلها مؤهلة للتعبير عن المبادئ الثابتة والحقائق القارة، كما أن هذا التساوي بينهما أي بين طرفي الإسناد يعني اللاتناقض، ومن أولويات الحجاج عدم الوقوع في التناقض.

يقوم الملفوظ على تناظر بين ثنائيات، بين النفي والإثبات، والأمر والنهي، بإثبات الخيانة والجنين للعرب ونفي الشجاعة عنهم والكرامة، وذلك لأن للإثبات عمل حجاجي واضح، أما النفي فيتطرق إليه الشك، ولذلك كان مبحثا مشتركا بين تخصصات معرفية عدة، فتناوله النحاة من الناحية التركيبية ففصلوا في حروفه وتراكيبه، وتناوله البلاغيون في إطار علاقته بالإثبات، والتداوليون في إطار أفعال الكلام والمناطق من حيث تأثيره في القضية. أما بحسب النحاة فهو

عكس الإيجاب إنه إكذاب له، والإكذاب تكذيب بمسلمات المتلقي، وبذلك توضح حججته (موتى لا يملكون ضريحا، يتامى لا يملكون عيوناً) مما يؤدي إلى تكذيب كل ادعاء بالرجولة أو البطولة، ومنه حمل المتلقي على التسليم بذلك، والتخلي عن معتقداته السابقة.

- حررونا من عقدة الخوف فينا واطرحوا... من رؤوسنا الأفيونا... أفعال كلامية توجيهية، قوتها الإنجازية: الرجاء، والمحتوى القضوي: أمل الشاعر في أن يكون أطفال الحجارة سببا في شخذ همم العرب والنفخ في جثثهم الهامدة، علّ أنفاس الصغار الحارة تعيد الحرارة والحياة إلى قلوبهم بعد أن قتلها الخوف ولّفها الحور.

- أمطرونا بطولة وشموخا واغسلونا... اغسلونا. أفعال كلامية طلبية، قوتها الإنجازية: التشجيع والفخر، ولم نقل التشجيع فحسب لأن بطولات أطفال الحجارة شيء واقع، وكأني بالشاعر يقول من قبيل الأفعال الكلامية غير المباشرة: نعم هكذا أمطرونا بطولة، بينما التشجيع قد يكون على شيء حاصل أو غير حاصل، كأن تشجع المتردد على الإقدام أو القاعد على القيام وهكذا. أما هنا فهو نخر وتشجيع على الاستمرار في آن معا، والمحتوى القضوي: استمروا أيها الأبطال في إبهاركم لنا وازدادوا رفعة واستمروا في صناعة المعجزات. فربما نسب الدم الذي بيننا وبينكم -وتدل عليه الإحالة السياقية (نحن آباؤكم فلا تشبهونا) - يحول دون الحكم على كل العرب بالذلل، فنتستني منه فئة هم أنتم، علّم تكونون نقطة إباء وحيدة في مستنقع ردة عربي، وربما دافعكم عن الأرض يغطي بجماله قبح استسلامنا.

"استعدوا"... فعل كلامي من الوعديات، قوته الإنجازية: الوعد بالنصر، والمحتوى القضوي: أن النصر آت لا محالة، فهذه هي طريقه وهذا سَفَنه، وتلك أسبابه، وسوف تحرر الأرض.

فلسطين رمزها الزيتون، وهنا قدرٌ كبير من التضمين والاقتضاء والتمثيل، وهو شأن الأفعال الكلامية غير المباشرة خاصة في الخطاب الشعري.

إن عصر العقل السياسي ولى من زمان فعلهونا الجنونا: فعل كلامي طلبى في كَيْتته، قوته التحريض، والمحتوى: أن ما أخذ بالقوة والاعتصاب، لا يسترجع بالسياسة والحساب، واسترجاع الحق بالقوة رغم الضعف هو ما يسميه أصحاب السياسة "الجنون". فقاوموا أيها الأبطال وعلّمونا دروسا في المقاومة والتضحية وحب الوطن.

أما من الناحية المحاجية فيظهر الحجاج في أول مراتبه على مستوى الوحدات اللسانية منفردة، فكلمة "حررونا" و"علمونا" لهما شحنة حجاجية ذاتية، تمدان بها المفوظ برمته، كطاقة تسري فيه ككل، وتأهله للتأثير في المتلقي، ففيها دلالة على القيود ومن ثم تقتضي فعل التحرير وكسر تلك القيود، وتقتضي سبيل ذلك التحرير والطريق إليه، فهو ليس تحريرا ماديا بل نفسيا دلّت عليها الوحدات المعجمية التالية (عقدة، الأفيون)، وكلُّها تبقى مشدودة إلى (حررونا، وعلمونا) لينعكس كل ذلك على أولئك المبكّين بالخوف، فيتحررون من عقدهم ويدركون ويتعلمون.

إن إدراك حجاجية المفوظ منوط أيضا بوضعيات التلفظ، فالتلفظ لا ينشئ لفظا ذا وظيفة معينة دون أن يقصد بأن يكون له تأثير معين<sup>20</sup> والقصيدة هنا في سياق وُرودها جاءت دعما لأطفال الانتفاضة الفلسطينية سنة 1988، وكفرا بسياسات العرب وحالمهم آنذاك، وبعمليات تخدير الشعوب التي كان يمارسها الحكام باسم الحلول السياسية واتفاقيات السلام، مما يعيننا على إدراك قصيدة الشاعر وحجاجية القصيدة وأنها تكذيب لمسلمات الساسة التي يمكن للمتلقي أن يخضع بها، وتوجيه الخطاب وجهة حجاجية من شأنها التأثير في هذا المتلقي للتخلي عن قناعاته، والتسليم بمسلمات المتكلم.

جاءت هيمنة الجمل الفعلية هنا لوظيفة حجاجية إقناعية، فهي أكثر تعبيرا عن الحركة والتغير، وبدأ الشاعر بناءه المحجّجي بإيراد النتيجة، ثم الحجّة التي تؤدي إليها بمثابة الهدف، ثم وضع معالم الوصول إليه، فأورد الغاية وهي التحرير، ثم الأسباب المحققة لها وهي المقاومة كدرس تعطونه -أيها الفتية- في الذود عن الأرض والتعلق بها.

↑ (ن) حررونا  
أ (ح) علمونا

ظاهرة أخرى لها دور حجاجي كبير هي اعتماد الشاعر على التعريف، سواء بالإضافة أو الألف واللام أو الأعلام (عقدة الخوف-رؤوسنا، الأفيون، فن التشبث، الأرض، المسيح) سعيا منه لوضع المتلقي مباشرة في مواجهة المفاهيم عبر التعريف، لقدرتها على تقرير الحقائق وإثباتها، والتي تسهم في التأثير المباشر في المتلقي.

للبناء الحجاجي هنا كذلك دور حجاجي فيما يسمى بالحجاج بالتبادل، فالشاعر يصف نفس الحال في وضعين ينتميان إلى سياقين متقابلين، فنحن يملكنا الخوف ويسكن قلوبنا إلى درجة التفريط في الأرض ولنا يقين في السياسة ونزهب المقاومة والثورة، في حين أنكم تتشبثون بالأرض وتوقنون بالمقاومة وتكفرون بالسياسة، ثم ها أتم! وها نحن! وها هي نتائج اختياراتكم على قلة عددكم وعدتكم! تُرهبون الأعداء ويحسب لكم ألف حساب، وها نحن غثاء كغثاء السيل، أهون على العالم من أن يجعلنا رقما في حساباته. وتكمن قوة الحجاج في هذا التقابل التداولي، وهو أيضا حجاج بالقصد المضمّر فيه وفق ما يقتضيه السياق.

كما تعدُّ صفة "حزينا" التي وصف بها الشاعر المسيح حجةً في الخطاب، لأنها وضع للمتلقّي (الفتية) أمام مسؤولية تاريخية ودينية، وهذه الصفة هنا حجة للإقناع ويؤسس عليها الشاعر فعلا حجاجيا إضافة إلى حجاجيتها في ذاتها، فقد بين قدسية الأرض وأنها مهد الرسالات ومهبط الوحي، وأرض المعجزات، ومنها معجزة ميلاد المسيح وأن ضياعها ضياع لكل ذلك. مما يثري دلالات الخطاب في الحجاج، فاختيار الألقاب والصفات هو اختيار للمعطيات وجعلها ملائمة للحجاج لأجل الكشف عن وجهة نظر المرسل وموقفه من جهة، ودفع للمتلقّي إلى التخلي عما يعتقدّه والتسليم مرة بعد مرة بوجهة نظر المتكلم من جهة أخرى.

إن هذه الحجج تؤدي إلى نتيجة (ن) هي: "رفض الديانات السماوية لاحتلال اليهود أرض فلسطين" ولعلّ كلمة المسيح في إحالتها على الديانة المسيحية دون تحديد، فيها قصديّة من الشاعر للإبقاء على فراغات يملؤها المتلقّي، فالحجاج يكمن هنا فيما ينطوي عليه الخطاب من أمر مهم لم يرد الشاعر أن يفصح عنه (ليكون عدم الإفصاح أقوى حجة من الإفصاح)<sup>21</sup>.

أما فيما يسمى "الحجاج بالأدوات البلاغية" فنجد استعمال الشاعر الكثيف للاستعارات مثل: حررونا من عقدة الخوف، اطرّدوا من رؤوسنا الأفيونا... وطاقها الحجاجية الهائلة، نظرا لتجاوزها استعمال الألفاظ الحقيقية، ولقناعة الشاعر بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجا، وأنها (تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقّي)<sup>22</sup>.

أسهم في البناء الحجاجي أيضا طرفا الإسناد (حِرُّوا، اطرّدوا، وا، عِدِّوا، لا تتركوا) ليتم بناء الخطاب بناء حجاجيا قويا وموجّها عبر العلاقة بين طرفي الإسناد في الجمل الفعلية، بحيث

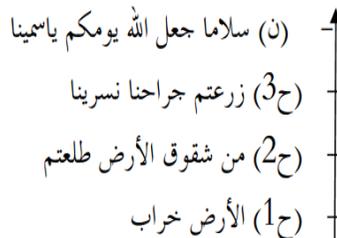
صار المسند حجة والمسند إليه نتيجة، فعملية التحرير والتعليم حجتان تؤديان إلى نتيجة تعود إلى المسند إليه (نحن)، وجاءت الجملتان (اطردوا..) و(لا تتركوا..) معطوفتان عليهما كمؤكدات للمعنى، وبعملية حجاجية كثيفة، وفي تدرج حجاجي غايته التأثير والإقناع، اعتمدته عملية التوجيه الحجاجي. ثم إن هذا التناظر بين طرفي الإسناد يعني - من جملة ما يعنيه - "الاتناقض"، ومن أولويات الحجاج عدم الوقوع في التناقض.

- من مظاهر الحجاج في هذا الملفوظ: العطف بالواو، كمظهر من مظاهر العدول بالزيادة بين الجمل، وما له من طاقة حجاجية في تأكيد الحجج وإثباتها. أما الفعل (لا تتركوا) من حيث قيمته المعجمية ومن حيث وجهته الزمانية، فيرفد أحدهما الآخر لتحقيق العملية الحجاجية التي بها يتحقق توجيه الملفوظ نحو النتيجة، فالنهي تخلص للمستقبل وهو توجيه حجاجي، والترك يكون عن صحة، والصحة تأييد واتفاق.

- يا أجبائنا الصغار.. سلاما: تظهر في الملفوظ حجاجية بعض الوحدات اللسانية والصفات مثل: الصغار، سلاما، ياسميننا، نسرينا... إضافة إلى التضمين، فهي وسائل تلطيف Dispositifs d'atténuation<sup>23</sup> فيها شحنات حجاجية مكثفة تسهم في التوجيه الحجاجي إذ تجعل من المرسل أبا عطوفاً، يسدي النصح إلى صغاره، وعلى المتلقي أن يستشعر هذه الشحنة من الإخلاص وهذا الدفق العاطفي الأبوي، فيكون بمثابة الدفع في عملية التوجيه الحجاجي والاقتناع بما يبثه المرسل من مفاهيم.

كما جاءت الأفعال الكلامية التقريرية في هذا التعليل تعبيراً عن مواقف المرسل، وتأكيداً ودعماً لوجهة نظره، ذلك أن (الأفعال الإلزامية تستعمل للتعبير عن قبول وجهة النظر أو الرغبة في الحجاج من عدمه)<sup>24</sup>.

وتمثل للبنية الحجاجية الصغرى هنا بهذا السلم:



هذه ثورة الدفاتر.. والحبر.. فكونوا على الشفاه.. لحونا: إن الحجاجة الميتالغوية L'argumentation métalinguistique تساعدنا على إدراك قصد المتكلم وفهم الخطاب فهما صحيحا، ويدخل فيها سياق الورد، وهو هنا الانتفاضة الفلسطينية بين ظلم الأعداء وضعف العرب، ومساهمة الشاعر فيها - وإن كان بعيدا عن أرض الانتفاضة- بدعمها باللسان والجانان، والشاعر من خلال معرفتنا بالسياق يتكلم عن نفسه وعن قصائده وأنها ثورة في مجالها وإسهام في النضال بما توفر لديه من أدوات الشاعر الثائر، الذي حمل لواء المقاومة منذ زمن الانتكاسة عام67.

لا يخفى ما في العنصر الإشاري (هذه) من دلالة على وجود مرجع ما، وقد استعمله الشاعر للإشارة إلى شيء يتحدث عنه، شكّل مرجعا حسب بنفست: (يحيل على فكرة ثابتة و"موضوعية"، وبمقدوره أن يبقى وهميا أو أن يفعل مع موضوع مفرد)<sup>25</sup> فحينما تلفظ الشاعر بالوحدة (هذه) يكون المتلقي قد اعتمدها لبناء تصور وشعور ذاتي يوفر له مع عناصر أخرى صيغة دلالية معينة، كالسياق الذي أشرنا إلى جوانب منه في حديثنا عن وضعيات التلفظ، إضافة إلى ما تحويه هذه الوحدة اللسانية من طاقة حجاجية ذاتية تؤهلها للتأثير على المتلقي، وكأن فيها موضوعة للحجة في السلم الحجاجي وتوجيها للخطاب من خلالها توجيها حجاجيا معينا، ويبدو لنا كمتلقين -إضافة إلى إشاريتها- أنها تحمل معنى التعظيم، وكأن الشاعر يقول: (هذه ثورة الأدب أضرمناها ولا زلنا نذكيا) يفسرها وصفها بالثورة، وأنه أتبعها: "فكونوا على الشفاه لحونا"، أي قد كفييناكم ثورة القلم وأسمعناها كل مسمع، فصددّقوها واقعا. وفيها أيضا ملامحة الوعد والاستمرار في ثورة القلم دون هوادة دعما للانتفاضة، كبدأ آمن به الشاعر، ووعد قطعته على نفسه (والمتكلم يدرك أنه بنطقه بالوعد يكون قد أمضى عقدا عليه الوفاء به)<sup>26</sup>

أما التوجيه الحجاجي فهو إقناع المتلقي بأنَّ تحقّق الحجّتين السابقتين ستترتب عنه نتيجة ضمنية هي النصر، وشيء آخر تؤديه الوحدة المعجمية "ثورة" بما تبثه من حجاجية في الملفوظ، يؤكدها اختيار الشاعر، فلم يقل: هذا نضال أو حرب أو مقاومة.. وإنما ثورة لأنها تحمل معنى التغيير والإزالة، فقد جاء في المعجم الوسيط: (الثورة: تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية، يقوم به الشعب في دولة ما)<sup>27</sup> ثم للتعرف عن هذا المحيط جاءت الإضافة إلى "الدفاتر" وما عطف عليه: "الحبر"، للتخصيص، وهو أدب نزار قباني، وثورة الشاعر ثورة على الأدب في حد ذاته، والتوجه به

وجهة أخرى تخدم قضايا الأمة وترفض أدب المساحيق التجميلية، التي تزين الأوضاع وتخدم مصالح الحكام.

ويسهم في هذا التوجيه المحجبي أيضا الإحالة السياقية إلى ما قاله نزار عن فهمه للأدب (إن دور الشاعر المغني قد انتهى، وهذا العصر لم يعد يبحث عن شاعر يحرك فيه غريزة الطرب، ويهز له سريره حتى ينام... ولكنه يبحث عن شاعر يورقه ويثير أعصابه، ويغرز في جلده دبوسا من نار)<sup>28</sup>، كما يقوم الحجاج اللغوي في هذا الملفوظ على تلك المقابلة بين استعمال الشاعر للجملة الاسمية (هذه ثورة) والجملة الفعلية (فكونوا على الشفاه لحونا)، فتغدو الجملة الاسمية المتمحضة للتعبير عن الحقائق والثواب هنا حجة، والجملة الفعلية الأكثر تعبيرا عن الحركة والتغيير هي النتيجة، فالنتيجة تتطلب الحركة والثورة واستمرار الانتفاضة، كما تلعب الأداة اللسانية (الفاء) في التركيب الشرطي دورا في التوجيه المحجبي وذلك أدعى إلى توليد الحجج والتوجيه إلى النتيجة، مما يدعم دور الجملتين الاسمية والفعلية، وأيضا دور الوحدات المعجمية والتخصيص، وكلها روافد تتعاقد لتحقيق البناء المحجبي للملفوظ وشحنه بطاقة حجاجية عالية.

- أمطرونا بطولة... الوحدات المعجمية حاضرة بمحاجيتها، وتأثيرها كوسائل تقوية لقوة الملفوظ الإنجازية، فـ"أمطرونا" يتطلب الاستمرارية أولا، وأنه مصدر إحياء وإنماء ثانيا، وأنه طهر ونقاء، ولذلك قال بعدها "اغسلونا"، لأن المطر يزيل ما علق بنا من أدران ويبعثنا خلقا آخر، وكأنه يولد فعلا حجاجيا مفاده وجوب اطراد الانتفاضة واستمرار عطائها الذي من شأنه أن يبعث الحياة في الأرض الموات، ويؤكد ذلك الإحالة إلى ملفوظات سابقة (من شقوق الأرض انخراب طلعت)، وإضافة الضمير (نا) في "أمطرونا"، لأن بطولة أطفال الحجارة ليست درسا للعدو فحسب، ولكنها درس يتعلمه كل العرب، والضمير (نا) يعود على الشاعر والعرب، والضمائر حسب "بنفست" وعاء للمصطلحات، مثل (نا) في هذا الملفوظ فهو وسيلة اصطلاحية وكل المتكلمين يعتمدونه، أي أنه ينتج عن مرجعية الخطاب، لذلك يقول عن الضمير (أنا) مثلا: هو الشخص الذي يتلفظ حاليا، ووعاء الخطاب اللساني "أنا" ينتج عن ذلك، وأن عبره تتحول اللغة إلى خطاب<sup>29</sup> ففي القصيدة الضمير (نا) يشير إلى المتكلمين، وهم الشاعر وقومه، أي "العرب"، لأنه يوفر له صيغة دلالية مناسبة.

والشاعر كأنه يرصد من خلال بنائه الحجاجي لخطابه الشعري نتيجة مزدوجة، وبينى ترتيب النتيجة على تحول (ن1) إلى حجة تؤدي إلى (ن2)، يتعلق هذا البناء بأطفال الحجارة أساساً، فهم يواجهون عدواً غاشماً تدعمه قوى العالم كلها، بينما آباؤهم (العرب) منبطحون هناك دون حراك، أو ربما يقنعونهم بالسلام المفضي إلى الاستسلام، وهذان الطرفان: العدو بقوته، والآباء بخنوعهم وخضوعهم هما طرفا الحجاج في الخطاب الشعري هنا، لذلك نجد الشاعر في البيتين: أمطرونا.. واغسلونا.. يعلق بطولية الأطفال ومقاومتهم للعدو بنتيجة ما يعود على الآباء، فالمقاومة تصدُّ العدوان وتحفظ الأرض وتبقي على ماء الوجه، وفي ذلك درس للعرب ليعيدوا حساباتهم ويدركوا الوهم الذي يعيشونه. وانتصار أبناء فلسطين باعتبارهم عرباً من شأنه أن يحقق النصر العربي المنشود.

ولأنه لا يمكن فصل البناء الحجاجي عن الوضعية التواصلية التي حدث فيها، فالشاعر هنا شاعر معاصر، والصراع قائم بين العرب واليهود، والخوف إنما يكون ممن بيده الفعل. وجاء النهي (لا تخافوا) متخلصاً للاستقبال: فموسى إذن حجاجيته في الملفوظ: "من يدعون أنهم أتباع موسى"، وكتابهم "كتاب موسى"، وهم "اليهود"، كما يفسره أيضاً السياق الداخلي (العصر اليهودي). أما (سحر موسى) فتستقل بحجاجيتها كذلك، فليس فيها تكرار وما هي بالحشو، بل هي تنوعات حجاجية، وتخصيص على التخصيص لما يستلزمه الخطاب "استلزاماً نموذجياً" حسب رأي "غرايس"، وبمقتضى معيار التداول والحجاج يتضح أن توسيع الجملة "لا تخافوا موسى ولا سحر موسى" يفتح اتجاهات خطافية حجاجية، (لكن التقييد يقلص من الإمكانيات الاتجاهية)<sup>30</sup>، إذ قد يقتضي لفظ "موسى" الأول اليهود في ذاتهم عدداً وعدة. أما سحر موسى الثانية -المقيدة - فتقتضي تأثير اليهود في غيرهم، من خلال تحكمهم في سياسات الغرب وسيطرتهم على رؤوس الأموال وخططهم وبرتوكولاتهم ومكائدهم، باستعمال الأموال والنساء وشراء الذمم والدسائس والمنظمات السرية، والتي يسكون من خلالها بخيوط السياسة العالمية شرقاً وغرباً.

ولا شك أن هذا التكرار العاملي للفظة "موسى" يزيد في قوة الأثر الحجاجي الذي يرومه المتكلم، خصوصاً في هذا السياق، لإقناع المتلقي في كل مرة بما يعتقد، فالأول وصف لليهود، والثاني وصف لفعل اليهود، (ويذهب (بيرلمان وزميله) إلى أنه من الخطأ أن نعتقد ثبات المعنى لهذه التعبيرات، ومن الخطأ أن نعتقد أن العلاقات بين هذين اللفظين هي ذاتها لا تتغير)<sup>31</sup> لنلمس

أثرا حجاجيا متغيرا فيهما مع زيادة في تحقيقه، ومما يقوي الحجّة ويزيد من تحقيق الأثر الحجاجي في الملفوظ صفة (اليهودي) التي تعد حجة إقناع في الخطاب، تقرر حجاجية الملفوظ (موسى) كما ذهبنا إليه من جهة، ويحاجج من خلالها باعتبارها لقباً من جهة أخرى، فوصف العصر باليهودي علامة على الهيمنة اليهودية في مقابل التراجع العربي، كما أسس عليها الشاعر موقفا حجاجيا، أثرى دلالات الخطاب الحجاجية في أنهم أهل مكر وخديعة ونفاق.

وجاء تقديم جواب الشرط على جملة: (سوف ينهار، لو ملكنا اليقينا) عملا حجاجيا قصديا، قدّم الأمل قبل العوائق، وهي استراتيجية حجاجية نزارية، غايتها تقديم النتيجة لتحفيز المتلقي ونقله إلى أجواء الأمل والانتصار، ثم يردفها بالحجج المؤدية إلى تلك النتيجة، ليتعلق وجود الشيء بوجود شيء آخر، حتى إذا ما امتلأ المتلقي بأنفاس الحرية وحلق في أجوائها، حمله ذلك على التمسك بحلم تحقيقها، فيعمل من ثم على إزالة كل عائق دونها.

وملفوظ (علمونا) والذي تكرر خمس مرات في الخطاب يعد عاملا يتجاوز الوظيفة الإبلابية إلى الوظيفة الحجاجية، والدليل على ذلك أنه لو حذف هذا العامل من الخطاب لفقد الخطاب قيمته الحجاجية، ولُفُدت العاملة الحجاجية من الملفوظ برمته، لذا يمكننا أن نعدّ (علمونا) - والتي فُطر الخطاب بها واختتم، ثم تحور حولها وارتكر- أكبر دليل على حجاجية الخطاب من جهة، وأنها بمثابة العماد فيه والوتد Cheville ouvrière تتعلق به باقي الملفوظات في الخطاب.

يُعدُّ (الجنون) ومشتقاته نواة هذا الملفوظ، ومن أهم العناصر الحجاجية فيه، وإن أكبر دليل على حجاجيته هو إردافه ومقابلته بنوع من الاستفهام الضمني أو الصريح أحيانا، ووضعهما كحجتين وجها لوجه في مدى تناظري يكرس مبدأ الموازنة والتماثل: (يا مجانين غزرة - ألف أهلا)، (أهلا بالمجانين - إن هم حررونا)، (إن عصر العقل السياسي ولى - فعلمونا الجنونا) وهي آلية حجاجية ناجعة في وضع المتلقي في موقف سافر أمام الحقائق الصادرة الناطقة، وأيضا في استخراج المعنى من الملفوظ. ونقف هنا على نفس التقنية التي وقفنا عليها في البناء الحجاجي للملفوظات السابقة، حينما بدأ الشاعر بالنتيجة (ألف أهلا بالمجانين)، ثم الحجج متدرجة في شكل تنازلي، يجعل من الحجّة الأولى تستلزم ما يليها من حجج، ويجعل من النتيجة ضمنية يحيل عليها الملفوظ "فعلمونا الجنونا".

وقد جاءت ألفاظ: "الجنون" و"المجانين×2" معارف، يعرضها الشاعر على أنها مفاهيم واضحة جلية، لاكتها ألسنة المتخاذلين طويلا، وجاءت محققة للطباق (العقل ≠ الجنون)، والذي لا يقتصر دوره على الزخرفة اللفظية، بل إنه بما يقدمه من تقابل بين الضدين يكتسب دورا حجاجيا هاما، يتصدى من خلاله إلى وظيفة الإقناع والإفهام، فالحجاج بالثنائيات يعد ذا قيمة حجاجية تحدث تغييرا في قنوات المتلقي، ومن ثم تسليمه بقناعات المرسل.

جاء المؤكد (إنَّ) في الملفوظ (إنَّ عصر العقل السياسي ولى من زمان) لتحقيق قصد التوكيد، وهو غرض حجاجي يتوجه به الشاعر إلى المتلقي المتردد الذي ربما أوهموه بقناعات الساسة وجدوى السياسة، لكن الشاعر يعمل على تغيير تلك القنوات لديه ويبدد غيوم الشك من بصيرته، بوضعه مباشرة أمام حقائق لا يجد لها رداً ولا لوضوحها صدأ. ثم يتبعها الشاعر مباشرة بحرف جواب: "الفاء"، ليستبدل قناعة بقناعة، وكأنه يفرغ المتلقي ثم يملؤه، وهذا صلب الحجاج، لتكون "الفاء" بذلك قد لعبت دورا مهما فيما يسمى التسلسل الحجاجي Enchainement argumentatif وبطاقة حجاجية سرت في كامل الملفوظ، تحول بحكمها (إن عصر العقل السياسي ولى من زمان) إلى إفادة الاهتمام بالملفوظ بعدها، بحيث إذا سمعها المتلقي تطلع إلى ما بعدها في جواب الشرط (فعلونا الجنونا) وفي ذلك كشف لزيغ العمل السياسي وأنه لم يعد يجدي نفعاً، فقد خبرناه وأدركنا فشله، وأصبحنا بفعله فريسة ينهشها اللثام، فإذا ما انتفضت هذه الجثة يوماً خدروها ثانية بكلمة "السياسة" وعادت وعادوا لما كانوا عليه، وبفعل هذه العملية الحجاجية للفاء نجد الانتقال السريع بالمتلقي من المحجة إلى النتيجة وكأنها حتمية مباشرة وتلك هي غاية الحجاج.

البنية الكبرى: قصيدة "الغاضبون" خطاب موجه من الشاعر إلى أبناء غزة الأشاوس، يتخذ فيه الملفوظ "يا تلاميذ غزة" شكل عامل مشترك ترتبط به بقية الملفوظات كتفرعات عنه أو استرسالات يسري عمله فيها، كما يلي:

|  |                       |  |
|--|-----------------------|--|
| بعض ما عندكم.. / فنحن نسينا                  | علمونا                | - يا تلاميذ غزة  |
| بأن نكون رجالا.. / فلدينا الرجال صاروا عجينا |                       |  |
| الحجارة.. ماسا                               | فن التشبث بالأرض      | - يا أحياءنا الصغار.. سلاما<br>- يا مجانين غزة .. ألف أهلا |
| دراجة الطفل.. لغما                           |                       |  |
| شريط الحرير.. كمينا                          |                       |  |
| مصاصة الحليب.. سكينا                         |                       |  |
| لا تبالوا.. بإذاعتنا                         | لا تعودوا.. لكتاباتنا |  |

إن (النص ليس تتابعا بسيطا لأفعال تلفظية ذات قوى إنجازية معينة، لكنه بناء هرمي من الأفعال المترابطة)<sup>32</sup> لذلك يمكننا القول - بناء على آليتي التفكيك والتركيب السابقتين - إن الفعل الكلامي الكلي للخطاب Macro acte de langage هو فعل كلامي غير مباشر، قوته الإنجازية: التحريض، ومحتواه القضوي مفاده: يا أطفال فلسطين أتم الأمل وأنتم الرجال من دون كل العرب، اضربوا وقاوموا واستمروا ولا تأهبوا بنا ولا بسياساتنا فتصميمكم عدوى الوهن، وكلها أبهرتم وانتصرتم تكونون قد زرعتم في بلاد العرب كلها بذور الثورة، وبذلك سيتحقق النصر الأعظم، وستكونون أنتم من استلهمه وألهمه.

ومن خلال هذا الفعل الكلامي وآليات التعرف عليه يمكننا استيضاح ملامح البنية الحجاجية العامة التي يقوم عليها خطاب "الغاضبون".

إن ما سبق ذكره من آليات حجاجية جزئية من شأنها أن تغذي عملية التوجيه الحجاجي (L'orientation argumentatif) في الخطاب ككل، فالمتكلم يجعل من المتلقي يواجه المفاهيم والقناعات والحجج التي قدمها له في شكل جلي ومتدرج وسلس، فالسياسات وما تدعيه من عقل وحكمة وسلام قد فشلت، والعدو وما يدعيه من ديمقراطية إنما هي مجرد ادعاءات كاذبة، وتخاذل العرب وخيانتهم أمر واقع، وتسليم الأرض والعرض بالنسبة لأطفال الحجارة أمر دونه الموت، وفي كل ذلك شحنات حجاجية في الرد على أي مشكك في جدوى الانتفاضة واعتباره إياها جنونا، بناء على عقلية سياسية ما، وفيه أيضا إبلاغ للمفاهيم الجديدة للسياسة والجنون، وإيصال للمعنى الذي يتوخاه المتكلم، ليؤدي بذلك الخطاب الإثبات والنفي معاً: إثبات المنطوق وما يقتضيه، ونفي رأي المخالف وما يدعيه.

يوجه الشاعر من خلال خطابه أطفال الحجارة والمتلقي عموماً إلى مفاهيم، غايته منها إذعان السامع لها ولقصد صاحبها، وهذا التوجيه الحجاجي لا تحققه العناصر الحجاجية منفردة، لكنها تسهم في عملية التأويل، وفي عملية الإذعان، بعامليتها الحجاجية التي تكسب كل التركيب طابعا حجاجيا متميزا، إضافة إلى ارتباط دلالتها بخلفيات أحر (منها ما هو ذاتي وما هو جماعي). الأمر الذي يتطلب استحضار عوامل ثقافية واجتماعية تقترن بالخلفيات المعرفية المشتركة [...] تتضافر فيما بينها ليحصل الإقناع والاقناع<sup>33</sup>.

أما عن التسلسل الحجاجي وترتيب الحجج والنتائج كما توزعت في الخطاب، فمحتاج إلى شيء من التوضيح كما يلي:

يقوم الخطاب على بنية حجاجية عليا (Hyperstructure argumentative) ساهم في التعرف عليها الفعل الكلامي الكلي الذي وضعناه سابقا، وتنضوي تحت هذه البنية الحجاجية ثلاث بنى حجاجية صغرى، توصلنا إليها عبر عملية التركيب للسلام الحجاجية الجزئية.

إن التحريض على المقاومة ليس دفعا بها إلى الانتحار، ولكنه سبيل مدروس، أبان فيه الشاعر عن قدرة وحكمة وتبصر بالأشياء، اجتمعت أمام ناظره أسباب الهزيمة، فعمد إلى التقييم الذاتي وإلى تحديد شروط النصر وموازنة القوى، فصنف كل ذلك في بناء حجاجي متدرج، مستعملا في سبيل ذلك أسلوبا الأمر والنهي بشكل لافت للانتباه لصلتهما الوثيقة بالحجاج (لأنهما يهدفان إلى توجيه المتلقي إلى سلوك معين تحدده أطروحات الشاعر ومبادئه)<sup>34</sup>، إنه يرى أن عامل الهزيمة الأول هو عامل ذاتي، فشخصه ثم وصف العلاج لهذا الداء، وبعد ذلك عمل على استشراف ما يمكن حصوله من نتائج، منتقلا في انسيابية بين هدفين أو بين انتصارين، انتصار فلسطيني قريب، ثم انتصار عربي بعيد.

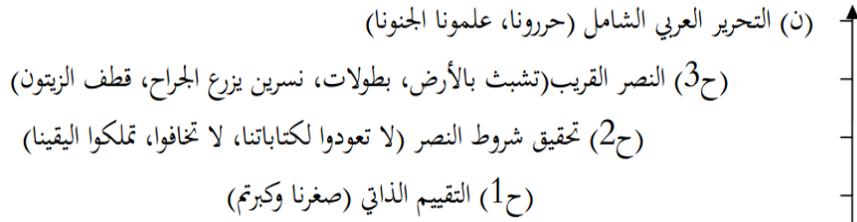
انطلق الشاعر من أسباب الهزيمة واعتبرها داخلية، فكان التقييم والتشخيص قبل العلاج، وحدد بداية أطراف معادلة المقاومة في طرفين، أطفال الحجارة والعرب، ونلخص تقييمه للطرفين في: "صغرنا أمامكم ألف قرن / وكبرت خلال شهر قرونا"، وكانت هذه أولى النتائج التي ستتحول في إطار البناء الأكبر إلى حجة أولى (ح1).

وبعد التشخيص جاء دور وصف العلاج، فوضع شروطا لتحقيق النصر، ووجه إليها أطفال الحجارة، تتعلق رأسا بتلافي أسباب الهزيمة، ولأنها أسباب داخلية في جلّها تعلق هذه الشروط بعوامل النصر الذاتي: (لا تعودوا لكتابتنا)، وسبب هذا التحذير أننا (نتعاطى القات السياسي والقمع، ونبني مقابرا وسجوناً)، وشروطاً أخرى ذاتية أيضاً: (لا تخافوا، تملكوا اليقينا..). لتصبح هذه الشروط حجة ثانية (ح2).

فإذا ما تحققت شروط النصر تحققت النتائج: (دروس في فن التشبث بالأرض، بطولات ماطرات، زرعتم جراحنا نسرينا). ثم لا يكفي الشاعر بهذا النصر، بل يجعله عاملاً لنصر أكبر، تصير معه هذه النتائج حجة ثالثة في سلم حجاجي يشمل الخطاب ككل (ح3). والنتيجة الكبرى التي يرومها الشاعر هي التحرير الأعظم والفتح المبين الذي يحزر كل العرب من كل استبداد، والذي كما أشرنا حدد له مراحل يمرُّ بها هي التقييم الذاتي، إصلاح الخلل، تحرير فلسطين ومن ثم تحرير عربيٍّ شامل. لتتشكل البنية الحجاجية العليا للخطاب بناء على استدلالنا كمخاطبين و(على بعض الأسس العامة للمخاطبة وعلى خلفية المعلومات المشتركة المتبادلة)<sup>35</sup> بين الشاعر والقارئ.

### السلم الحجاجي:

إن الحجاج فعل مركب وموجه هدفه إذعان Adhésion المتلقي لما وجه إليه المتكلم من نتائج عبر سلسلة من المتواليات المتمثلة في المقدمات أو الحجج الجزئية، وبناءها بناء متدرجا موجها، تحقيقاً لما يمكن تسميته فعلاً حجاجياً Acte argumentatif. وبناء على ذلك يمكننا تمثيل هذا البناء في شكل سلم حجاجي كالتالي:



خاتمة :

بعد هذه المسيرة مع أفعال الكلام والحجاج في هذا النموذج من الخطاب الشعري، يمكننا القول إن "الغاضبون" بتمفصلاتها إنما تستخدم كيانا واحدا، يمثل بنية الخطاب الإطار وتسهم علاقاتها وتفاعلاتها فيما بينها في بناء فعل كلامي كلي Macro acte de langage وبناء حجاجي عام للخطاب، ذلك أن نسيج الخطاب الشعري يوفر للقارئ تيمة كلية تردها تيمات صغرى فيما صاغه الشاعر من استرسال continuum، فلا تختزل تيمة دون مراعاة غيرها، لذا يقترح فان دايك للوصول إلى البنية الدلالية الكلية التركيز على التيمات الأساسية في عودتها إلى موضوعة رئيسة تمثل التيمة الكلية للخطاب.

تظهر العلائقية بين الأفعال الكلامية لا على أنها عملية إضافة، بل في شكل تفاعل داخلي يسهم فيه كل فعل وكل حجة داخل القصيدة بعلاقة تربطهما بباقي الأفعال الكلامية والحجج، لتتعلق بعدها مشكلة خطابا موحدا يتوجه به الشاعر إلى أطفال الحجارة، وعبرهم إلى القارئ العربي المفترض.

وقد نلّس لهذا الفعل الكلامي فعلا ناتجا عن القول perlocutoire وتأثرا بذلك الحجاج يعبر عنه الانفعال الذي يشعر به القارئ، فالتأثر فعل ناتج عن القول، بل حتى محاولة الإجابة عن أسئلة الشاعر إنما هي شكل من أشكال الفعل الكلامي الناتج عن القول، فالقارئ تزدهم في ذهنه لحظة القراءة جملة من الإجابات والاستجابات، هي مزيج من التصديق والإقرار بما أقره الشاعر، وتعجب وذهول وحيرة أمام بعض الاستفهامات، واستنتاج لبعض الأجوبة.

وتتغير درجة الفعل الناتج عن القول من مقطع لآخر داخل القصيدة، وكأنها أخذت هي في ذاتها شكلا بنائيا وجه إليه الشاعر وتحقق في ذهن ووجدان القارئ، تزداد شدته ونبضه ويلتئم شتاته شيئا فشيئا، وتتبدد حيرته رويدا رويدا، ليقر في آخر المدونة بما أدرك من مقاصد المتكلم أو - على الأقل - ما تصور أنه قصد الشاعر، فيسلم بضرورة المقاومة ليس فقط لأطفال فلسطين وإنما لكل أطفال العرب، ومن ثم الدعوة إلى حماية ودعم هذا الأمل ومدته بعناصر الاستمرار والبقاء والنماء، والنفخ في ناره المقدسة علّها تأتي على ما شاب خامة الأصالة من شوائب، وبالنار يمتحن الذهب.

## الهوامش:

- 1 - رويول آن وموشلر جاك، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص29.
- 2 - بعبطيش يحيى، الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص89.
- 3 - رويول آن، م.س، ص31.
- 4 - المرجع نفسه، ص32.
- 5 - صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص41.
- 6 - المرجع نفسه، ص44.
- 7 - العبد محمد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 2005، ص287.
- 8 - Searle. J.R., Sens et expression, études de théorie des actes du langage, Traduction par Joëlle Proust, éd de Minuit, Paris, 1982, p31.
- 9 - العبد محمد، تعديل القوة الإنجازية، التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم، حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص307.
- 10 - أرمينغو فرانسواز، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، ط1، 1986، ص22.
- 11 - رول أوليفي، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ تر: محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، المغرب، 2005، ص216.
- 12 - أدراوي العياشي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، ص89.
- 13 - العبد محمد، النص والخطاب والاتصال، ص69.
- 14 - أدراوي العياشي، م.س، ص97.
- 15 - الشهري عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص487.
- 16 - أرمينغو فرانسواز، م.س، ص23.
- 17 - عبد الرحمن طه، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص38.
- 18 - ابن الأنباري أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، تحقق: جودة مبروك محمد مبروك، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ط1، 2002، ص569.
- 19 - المرجع نفسه، ص569.
- 20 - ينظر: يول جورج، التداولية، تر: قصي العتايي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص83.
- 21 - الشهري عبد الهادي، م.س، ص492.
- 22 - المرجع نفسه، ص495.
- 23 - في الحقيقة هي ترجمة شخصية لـ: Mitigating devices من الإنجليزية إلى الفرنسية.
- 24 - الشهري عبد الهادي، م.س، ص482.

25 - Benveniste Emile, Problèmes de linguistique générale, Cérès Editions, Tunisie, 1995, p251.

26 - Searle.J.R, Les actes de langage, HERMANN, Paris, 1972, p105.

- 27 - مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص102.
- 28 - قباني نزار، الكتابة عمل انقلابي، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، ص10.
- 29 - ينظر: Benveniste.E, Op.cit, p253
- 30 - عبد الرحمن طه، اللسان والميزان، ص291.
- 31 - الشهري عبد الهادي، استراتيجيات الخطاب، ص492، ونشير فقط إلى أن تيتيكاه زميلة بيرلمان وليس زميله كما ورد عند الأستاذ الشهري ولعله خطأ مطبعي.
- 32 - Adam.J.M, La linguistique textuelle, Introduction à l'analyse textuelle des discours, ARMAND COLIN, 2éd, 2008, p125.
- 33 - أدراوي العياشي، الاستنزام الحوارية، ص109-110.
- 34 - الدريدي سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيتة وأساليبه، عالم الكتب الحديثة وجدارا للكتاب العالمي، عمّان، الأردن، ط1، 2008، ص149.
- 35 - العبد محمد، تعديل القوة الإنجازية، ص317.